٤ – في التربية

الأسس الحيوية للتربية

– ١ –

انقسم علماء النفس فريقين حول مظاهر الحياة النفسية للفرد ؛ وزعم واطسن الأمريكي المدرسة الآلية في تفسيره ، معتبراً الانسان آلة معقدة التركيب ، تفسرها قوانين الطبيعة والكيمياء ، وما الفرق بين الإنسان والآلة إلا في درجة هذا التعقيد . وقد بدأت هذه الحركة التي بلغت ذروتها في مدرسة واطسن بديكارت ، الذي سلب الحيوان القدرة على الشعور والاحساس ، ثم طبق أتباعه رأيه على الإنسان . ثم ظهرت المدارس النفسية الحديثة التي رأت في الإنسان اختلافاً جوهرياً عن الآلة مهما تعقدت وتركبت ، هو الفرق بين الجامد والحي . فالكائن الحي يعمل ويسلك متكاملاً متحداً ولا ينتج مجموع أجزائه هذا الكل ، وإنما يعمل كل جزء عمله وكأنه يعلم مكانه بين الكل العام . ولو تمكن عالم كيميائي من خلق خلايا حية في معمله ، فلا ندري كيف تختص كل مجموعة بعمل خاص ، وتسير المجموعات منسجمة متحدة كما يظهر بين أجزاء الكائن الحي . إن ما يربط هذه الأجزاء ويؤلف بينها ويجعلها متكاملة هو الحياة ، وهي ما ينقص الأجزاء لو انفصلت وأعيد تركيبها فأعوزها التكامل والوحدة .

فالكائن الحي يختلف في جوهره عن الآلة ، والكرة تتحرك بين قدمي اللاعب دون إرادتها ، وتخضع في اتجاهاتها لعوامل خارجية كمقاومة الهواء لها ، وقوة الجاذبية الأرضية ، أما حركة الطائر على الغصن ، حين يرى قطاً يهاجمه ، فينطلق هائماً برحة ثم يلجأ الى مأمن بعيد ، فهو سلوك متنوع تلقائي ، يرمي إلى تحقيق غرض ، ويندفع الى تحقيق نتيجة تنبأ بها قبل تحقيقها . فالسلوك هنا يرمي الى تحقيق غاية ، وغايته متصلة بسببه وهو نشاط حي لا نشاط جامد .

ومن صفات الكائن الحي النمو وتمثل الغذاء والتناسل لحفظ الجنس ، فاذا ما أصاب الحيوان جرح ، التئم ، وإذا ما أصاب بعض الخيوط بتر في طرف من أطرافه فما غيره وإذا مرض الكائن الحي سعى إلى الشفاء . يقول بارك Parker تعدل الحياة نفسها بنفسها ، وتتكيف مع ذاتها ، وتخلد نفسها بنفسها . فأين ذلك في عالم الآلة ؟ إن الآلة لا تخلد نفسها أو تتكامل ! !

ووراء السلوك عقل من العسير تعريفه ويرى مكدوجل أنه بناء متكامل قوامه قوى النفس ، ويرمي الى تحقيق «الغرض» وهو تفسير قاصر في بعض نواحيه ، فما معنى القوى ، وما معنى الغرض ؟ وهل العقل مادة ؟ وهو صلته بالجسم ؟ يرى أنصار التوازن الثنائي بين الجسم والنفس ، ان النفس مختلفة تماماً عن الجسم ، ومع ذلك يعملان متوازيين دون التقاء ، بينما يرى أنصار الوحدة أن الجسم والعقل حقيقة واحدة فهما شيء واحد ، ينتج عنهما معاً ظواهر النشاط . وترى جماعة ثالثة أن المنتج النهائي من النشاط لا يرتبط بالجسم ولا بالعقل وإنما هو شيء جديد . والواقع أن العقل والجسم لفظان من نسج الخيال ، وفرضان يعبران عن حقيقة نفسية واحدة ، فالكائن الحي كل متكامل ، ومظاهر سلوكه ونشاطه متنوعة ، ومصدر السلوك والنشاط في الذات هو البناء النفسي بمظهريه الشعوري واللاشعوري .

فما الشعور ؟ ندرك أننا نشعر ونريد ، وندرك أنواعاً من المشاعر ، وتكون المشاعر الخبرة الفردية ، والشعور مستمر نشط ، وخصوصيته الحياة التي تميزها عن الجماد ، وهي مقصورة على العالم البيولوجي الحي . يقول بارك « هل تعتقد أن الحجر المتدحرج يدمر ويحدل على خبرة ؟ » والشعور مظهر الحياة متصل بالذات لا ينفصل عنها ، ويبطل بزوالها ، والشعور موضوع فضولي يؤلمني ، والألم هو الاحساس والخبرة . وقد قال ديكارت قديماً إن الخبرة أصل الحقيقة ، وإذا برهن الفيلسوف على بطلان العالم الخارجي ، فلم يستطع نفي وجود النفس الداخلية . والشعور هو ما يصل الانسان بالعالم الخارجي ، وهو الذي يساعده على فهم سلوك غيره ، وهو أساس قواعد علم النفس الذي يقوم على الأسس المشتركة للخبرات ، وعلى تفسيرها .

والشعور درجات . ولا نعي كل ما نشعر به . فقد أتذكر أن الساعة قد دقت منذ زمن

بعد حدوث الحدث ، بينما كان انتباهي حينئذٍ موجهاً الى شيء آخر ، ولا بد أن ما حدث أثر عن سمعي تأثيراً لم يبلغ حد الانتباه الكامل . فالخبرات إما أن تحدث في مستوى الانتباه الشعوري ، أو فيما دون الشعوري . على أن هذا التقسيم مصطنع ، فلا ينقسم الشعور إلى درجات كغرف متفرقة . وإنما يقال ذلك لتسهيل التفسير . والشعور مظاهر ثلاثة ، تتلون بها موضوعاته فله لون ادراكي ولون وجداني ولون نزوعي ، وقد يتغلب أحد هذه الألوان على اللونين الآخرين ولكنه لا ينعدم لون منها مهما صبغت العملية باللون الآخر ، ولا تنفصل في مظاهرها عن بعضها إلا بالتحليل المصطنع والتجريد العلمي ، فالخبرة الانسانية وحدة متكاملة دائمة التغير ، يوجهها تركيب نفسي دائم النشاط ، يوجه الشعور والسلوك ، ويحدث الخبرة . وهذا التركيب خفي لا يلاحظ في أثناء الشعور ، وإنما يلاحظ النفسي ، كما يقول ستوت Stout ان الامزجة متنوعة ، ومنها ما هو فطري وما هو مكتسب ، ويرجع مكدوجل McDougall أن المزاج ناتج عن نشاط التركيب النفسي .

أما اللاشعور ، كما يدعوه هارتمان Hartman أو البناء النفسي كما يسميه درفر Drever فهو شيء يختلف عن الشعور ، فهو الذي يشكل الشعور ، فلدينا الشعور والخبرة من ناحية ، والبناء الذهني أو المزاج أو اللاشعور من ناحية أخرى .

— ٢ —

ولم يعد تقسيم القدماء للعقل الى ملكات صالحاً ، فالعقل لا ينقسم الى ذاكرة أو حكم أو انتباه ، أو ما الى ذلك من ملكات تخفي الجهل وراء سلسلة من الألفاظ بمنهج تركيبي ، فالعقل وحدة متكاملة وله نشاط يسمى بأسماء ، وإنما نتذكر عيناً ، ولا توجد ذاكرة ، وسعى العلماء إلى ملء الفراغ الناجم عن إلغاء نظرية الملكات ، فوضع ستوت « مظاهر الشعور » ومكدوجل « الغرائز » على أن نلاحظ أنها جميعاً ألوان للحياة النفسية المتكاملة ، ولا يوجد لها كيان موضوعي .

وأوسع مظاهر التركيب النفسي قدرته على الاحتفاظ ، أو القدرة الميمية Mneme وهي آثار العمليات الحيّة في البناء الذهني والعقلي والنفسي . ويحتوي الفرد تاريخ خبرة النوع والذات ، والقدرة الميمية مظهر احتفاظ المرء بخبرات الماضي ، وما يدخل في التذكر

الواعي جزء مما يتخلف في اللاشعور . والقدرة الميمية أوسع من مجرد التذكر الواعي ، وما ذلك إلا مظهر ميمي في مستوى الشعور . وإنما تعمل هذه القدرة أيضاً في مستوى دون مستوى الانتباه ، ويتضح ذلك في قدرة الحيوانات حتى الدنيا منها على الاستفادة من الخبرة . وقد أجرى مكدوجل تجربة أدخل بها دودة في أنبوبة ذات شعبتين ، دخلت من أيهما ، ولما سلط تياراً كهربائياً في أحدهما ، مرت بالآخر مرات متتالية . وما زال الكلب يدور في وجاره مرات قبل أن يطمئن إليه ، والطيور تبني أعشاشها بطريقة خاصة ، والسمك يبيض في أماكن يهاجر إليها دون تدريب ، وإنما هي خبرة الجنس في الجانب الاحتفاظي اللاواعي في نطاق واسع . وليست هذه القدرة مخزناً وإنما هي نشاط تلقائي ، لا وجود مستقل له ، فتأتي التجربة وتذهب ، وتبقى آثارها ، في صور تكيف في التركيب النفسي ، بل يعتبره الطبيعيون تأثيراً مادياً في المخ . ويسمي مكدوجل هذه الآثار باسم مركبات حيّة engrams وتصاير القدرة الاحتياطية العامة قدرة ذات مظهر نشاطي ، ترجه التركيب النفسي للاحتفاظ شيء دون شيء ، بأسلوب خاص . ويسمي هربشور هذا المظهر النشاطي الحي « إرادة الوجود » Will to be ، وبرجسون « الدافع الحيوي » élan vital ، ونحو « إلحاح الحياة » life urge ، وفرويد « الليبدو » libido ، ونن « الدافع الهورمي » Horme وهو المظهر النشاطي بألوانه الشعورية واللاشعورية في الكائنات الحية ، وأقيمت عليها فلسفات تربوية ، أقامها فرويد ، مكدوجل على أساس النظرية الهورمية ، وفرويد على أساس الشعور واللاشعور ، مع اتحادها في الاساس واختلاف في الفروع .

وتظهر الدوافع الهورمية في مستوى الشعور في الرغبة والارادة ، أي في المظهر النزوعي بمعنى واسع . فهو واضح في نحو نحس مكان آخر ميتور ، ونحو طرف للبروع مقطوع ، وفي حياتنا من مظاهر الدورة الدموية ، والتنفس والهضم ومقاومة المرض ، واندمال الجروح ونمو الشعر والاظافر وانضمام الجفنين في الضوء اللامع ، فالدافع الهورمي هو المظهر الثاني للحياة في مستوى شعوري ولا شعوري وفردي وجنسي .

ولا ينفصل الدافع الهورمي عن الميمي ، وإنما ذلك تحليل مصطنع نظري ، وهما متحدان في النفس ، وينفصلان لايجاد مركبات دائمة التجدد ، والعقل يؤلف بينهما . ولم تعد نظرية تداعي المعاني كافية لتفسير الحياة العقلية بوحداتها المستقلة ، والتحليل الشعور الى عناصر وأفكار

ووضع قوانين لها ، فإعادة تأليف هذه العناصر وربطها من جديد مستحيل ، وقائم على منهج تركيبي لا تحليلي . وإنما تحل هذه النظرية وحدة العقل ، وتدعي أن الدوافع فرض لا تبني ذاتاً ، وآثار الخبرة هي العامل الذهني الصامد لا الخبرة نفسها ، ولا بد من تعديل تسمية هربارت للكتل ، وتسميتها بالوحدات الحية . أما تفسير التداعي الى زماني ومكاني وتضاد ، فهو صادق في أقله خطأ في جوهره وإنما المعنى أهم عامل في الترابط ويحدده ستوت Stout بأنه استمرار الاهتمام بالنسبة للفرد ، وإنما يمتنع القط عن القرب من صيدة ضربته بمكنستها بعد تجربته الأولى معها ، وتكييف آثارها لحياته النفسية الداخلية ، فهو يسلك تحقيقاً لهدف مغرض .

— ٣ —

وقد ترتب على هذه الآراء الجديدة نتائج خاصة في التربية . فميز الآثار الحادثة وبين اندماجها في مركبات حية جديدة . فترة زمنية ، ويساعد على قوة هذه المركبات استمرار الاهتمام ومدى اتصاله بالحاجات ، سواء أفي أعمال تستدعي اكتساب المهارة أو في حل المشاكل العقلية . وكثيراً ما تحل المشاكل ، ويزداد التحسن في فترات النوم والراحة ، وتعمل المركبات بنقاط متوقف على مدى الاهتمام بالمشكلة ، وما يوليها الفرد من اطلاع وعناية ، فكلما زاد الاهتمام ، زادت عملية التكامل ، وكلما اشتدت الرغبة في النجاح ، انضجت الوحدات التعبير ، فتتقدف بالحل في حيز الشعور . ولما كانت عملية تذكر ما على فترات متباعدة أبقى أثراً منها في فترة واحدة ، وكثيراً ما يسعى الفرد لتذكر شيء ما ، ولا يفلح فيتركه واذا به يتذكره فجأة ، وكذلك من الخير أن يترك التفكير في موضوع مدة حتى يختمر ، وان تترك الخصة حتى تتماسك نقطها . وفي الأعمال اليدوية ، تكثر الحركات الزائدة في البداية ثم تسقط بالمران ، وقد قام ثورندايك Thorndike بتجربة استطاع فيها أن ينتج مولافاً لقفص به طعام بعد مرات معينة ، ثم قل عدد المحاولات في المرات التالية ، ولا يشجع على اطراد التحسن مثل النجاح . ولا بد من فترات للتماسك بين المحاولات لاتقان المهارات وحل المشاكل ، واكتساب الخبرات الدائمة الأهمية ، والسعي الى الكمال والنضوج وما أحوج المدرسة الى مراعاة هذه الأسس الحيوية .

محمود عامر شوكت
حاصل على دبلوم في التربية وعلم النفس ، وماجستير في الآداب